العددِ 20 شباط 2026
المجلة العراقية للبحوث الانسانية والاجتماعية والعلمية
No.20 Feb.2026 Iraqi Journal of Humanitarian, Social and Scientific Research
Print ISSN 2710-0952 Electronic ISSN2790-1254

الحجاج البياني وأساليبهُ في المناظرات ـ مناظرات الإمام الرضا عليه السلام مثالًا ـ

أ.م. د. نوري كاظم امنسف علي الباحثة : رانيه مهند أحمد
جامعة بغداد/كلية التربية ابن رشد للعلوم الإنسانية- قسم اللغة العربية

الملخص :

يهدف هذا البحث إلى دراسة الحجاج البياني في مناظرات الإمام الرضا- عليه السلام- بوصفه أنموذجًا متقدّمًا لخطاب الإقناع في التراث الإسلامي، عن طريق تحليل الأثر الإقناعي للصورة البيانية بأشكالها الرئيسة: التشبيه، والاستعارة، والكناية. وقد اعتمد البحث المنهج التحليلي البلاغي، ومركّزًا على قراءة نصّية دقيقة لنصوص المناظرات للكشف عن طبيعة هذه الأساليب ووظائفها في بناء الحجة وتوجيه المتلقي.

وتُبرز النتائج أن الصورة البيانية أسهمت بدور فاعل في تقوية الحجة وتوضيح الفكرة وتجسيد المعنى، مما جعل خطاب الإمام يمتاز بقوة التأثير وعمق الدلالة. كما أظهر التحليل أن التوظيف البلاغي لم يكن محضَ زخرف لغوي، بل كان وسيلة إقناعية واضحة في تنظيم مسار الحوار وإقامة الدليل. ويؤكد البحث في مجمله أهمية دراسة البنى البلاغية داخل المناظرات بوصفها جزءًا أصيلاً من آليات الإقناع الحجاجي في الخطاب الديني.

الكلمات المفتاحية: الحجاج البياني، مناظرات الإمام الرضا عليه السلام، تشبيه، استعارة، كناية.

Abstract:

This research aims to study the rhetorical argumentation in the debates of Imam al-Rida (peace be upon him) as an advanced model of persuasive discourse in Islamic tradition. This is achieved through an analysis of the persuasive effect of figurative language in its main forms: simile, metaphor, and metonymy. The research employs a rhetorical analytical approach, focusing on a meticulous textual reading of the debate texts to reveal the nature of these techniques and their functions in constructing arguments and guiding the audience.

The results demonstrate that figurative language played an active role in strengthening arguments, clarifying ideas, and embodying meaning, thus giving the Imam's discourse its powerful impact and profound significance. The analysis also shows that the use of rhetoric was not merely linguistic embellishment, but rather a clear persuasive tool in organizing the dialogue and establishing evidence. Overall, the research underscores the importance of studying rhetorical structures within debates as an integral part of the mechanisms of persuasive argumentation in religious discourse.

Keywords: Rhetorical argumentation, Imam al-Rida's debates, simile, metaphor, metonymy.

تقديم :

تُعَدّ الصورة أداة بلاغية تؤدي وظيفة تعبيرية متميزة، فهي لا تمسّ حقيقة المعنى في ذاته، بل تضفي عليه بعدًا دلاليًا وتصويريًا يميّزه ويضاعف أثره في ذهن المتلقي. ومن ثمّ فإن أثرها لا يقوم على تغيير مضمون الفكرة أو محتواها، وإنما يتمثل في إعادة تشكيل طريقة عرضها، وتلوين أسلوب تقديمها بما يمنحها طابعًا جماليًا وحجاجيًا في آن واحد. [1]

وتمثل الصورة في البلاغة العربية أداة رئيسة لتكثيف المعنى، وإبراز الفكرة في صورة محسوسة تؤثر في المتلقي، ومن هنا فقد وُظفت في مناظرات الإمام الرضا (عليه السلام) لتكون جزءًا من البناء الإقناعي الذي يخاطب العقل والعاطفة معًا.

فالصورة البيانية هي" التعبير عن المعنى المقصود بطريق التشبيه أو المجاز أو الكناية أو تجسيد المعنى "[2] الذي يشير إلى الاستعارة.

في هذا البحث تم الالتفات إلى دراسة الأساليب البيانية للكشف عن طاقتها الإقناعية، وما تؤديه من أثر في مناظرات الإمام الرضا عليه السلام. وقد جعلتُ البداية بالتشبيه، إذ حفلت مناظرات الإمام بصور تشبيهية غنية ومتنوعة، فاقتصر البحث على أبرزها وأكثرها دلالة. ثم انتقلتُ إلى الاستعارة، لكونها تحتل موقعاً محورياً في الإقناع وتمثل إحدى أبرز الأدوات البلاغية التي برز حضورها في نصوص تلك المناظرات، أما الكناية فقد جاءت في المرحلة الأخيرة، لما تنطوي عليه من رموز وإشارات ذات معنى صاغها الإمام ببيان بليغ وأسلوب مؤثر.

-الأثر الإقناعي للتشبيه :

يُعدّ التشبيه من أهم الفنون البلاغية التي تُسهم في تشكيل الصورة الفنية وجعلها أكثر قربًا إلى الأذهان،

ويقوم على مبدأ المشاركة الدلالية بين عنصرين، يُراد عن طريقها الكشف عن وجهٍ مشتركٍ يجمع بينهما في المعنى، ليؤدّي هذا الاشتراك وظيفة إيضاحية تسهم في تقريب الفكرة وتجسيدها في ذهن المتلقي.[3]

وتتكوّن بنية التشبيه-على نحو عام - من أربعة عناصر أساسية هي: المشبَّه، والمشبَّه به، وأداة التشبيه، ووجه الشبه. غير أنّ هذه العناصر ليست في منزلةٍ واحدة من الأهمية؛ إذ يمكن الاستغناء عن بعضها إذا دلّ عليه السياق أو كان واضحًا في الذهن، كالوجه، والأداة، فحذفهما لا يخلّ بالمعنى. أمّا الركنان الجوهريان اللذان لا يقوم التشبيه من دونهما فهما المشبَّه، والمشبَّه به، لأنّهما طرفا العلاقة التشبيهية، فإذا أُسقط أحدهما زال معنى التشبيه وانتقل الكلام إلى باب الاستعارة [4]

وتحمل أساليب التشبيه، والتمثيل في طياتها أهدافًا متعددة تتجسّد غالبًا في صور بيانية تهدف إلى إحداث التأثير والإقناع لدى المتلقي. فالتشبيه، على وجه الخصوص، يُعدّ أداة فعّالة في الحجاج، إذ يقوم على القياس بين طرفين يرتبطان بعلة جامعة مشتركة، فيجعل عن طريق هذا الربط وسيلة لإيضاح الحكم وتعزيز القوة الإقناعية للخطاب. [5]

وكان للتشبيه حضور فاعل للتشبيه في مناظرات الإمام الرضا -عليه السلام- ومنه مناظرته مع سليمان المروزي في قوله:**" فَأَرَاكُمْ ادّعَيْتُمْ عِلْمَ ذَلِكَ بِلَا مَعْرِفَةٍ ، وَقُلْتُمُ الْإِرَادَةُ كالسّمْعِ وَالْبَصَرِ إذا كانَ ذَلِكَ عِنْدَكُمْ على مَا لا يُعْرَفُ وَلا يُعْقَلُ ، فَلَمْ يُحِرْ جَوَاباً "** [6]

فوظف التشبيه التمثيليّ في سياقٍ حجاجيّ لإبطال قياس الخصم الذي سوّى بين الإرادة وصفات الذات. فالمشبَّه هو الإرادة، والمشبَّه به السّمع والبصر، وأداة التشبيه الكاف، ووجه الشبه كونهما من الصفات الثابتة في زعم الخصم. وقد فنّد الإمام هذا التشبيه بالحجة العقلية، مبيّنًا أن الإرادة صفة فعلية تتجدّد بتجدّد المراد، لا كالسّمع والبصر اللذين هما من صفات الذات. وبهذا يتحوّل التشبيه في المناظرة إلى وسيلةٍ بيانيةٍ لإيضاح الفكرة العقائدية وتعزيز الإقناع العقلي.

ويؤدّي التشبيه التمثيلي دورًا حجاجيًا بارزًا في خطاب الإمام الرضا عليه السلام، إذ يُسهم في تعزيز قوة الحجة عن طريق تقديم مقارنة بين حالتين أو صورتين تمنح المخاطَب قدرة أوضح على تمثّل الفكرة المراد بيانها. ويعتمد هذا النوع من التشبيه على مقارنة علاقة بعلاقة؛ فبدل مقارنة مفردة بمفردة، ينتقل إلى موازنة نسق كامل بآخر، وهو ما يمنح الحجة عمقًا منطقيًا واتساعًا دلاليًا. وعن طريق هذا البناء التمثيلي،

يتمكّن الإمام من تجلية الفكرة الغامضة لعقل الخصم عبر تقريبها بصورة محسوسة أو معلومة لديه، فيصبح المعنى أكثر وضوحًا وأشد أثرًا في نفس المتلقّي، الأمر الذي يعزّز الإقناع ويُسهم في توجيه الحوار نحو نتيجة حجاجية راجحة.

وفي مناظرته- عليه السلام- مع جماعة من أهل مرو، حين سُئل عن صفات الإمام وبيان منزلته ووجوب طاعته، قوله عليه السلام: **"الإِمَامُ كَالشَّمْسِ الطَّالِعَةِ لِلْعَالَمِ وَهِيَ بِالْأُفُقِ، بِحَيْثُ لَا تَنَالُهَا الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارُ"**[7]

يستهل الإمام عليه السلام وصفه بتشبيه الإمامة بالشمس الطالعة، وهي صورة بيانية ذات عمق دلالي، وروحي. فالمشبَّه هو الإمام، والمشبَّه به الشمس، ووجه الشبه هو العموم في النفع والعلو في المنزلة والبعد عن الإدراك الحسيّ الكامل. ويبرز في هذا التشبيه الحضور الحجاجي بوضوح، إذ لم يأتِ الإمام عليه السلام بهذا التمثيل لمجرّد الزينة البيانية، بل لأداء وظيفة إقناعية مباشرة. فاختيارُ صورة الشمس - بما تحمله من رسوخ في الوجدان الإنساني ومن وضوح في الدلالة- يُعدّ وسيلة حجاجية فاعلة تهدف إلى ترسيخ ضرورة وجود الإمام في تصور المخاطَبين. فالشمس حقيقة ماثلة لا يختلف عليها أحد، وهذا الاتفاق الكوني يمنح التشبيه قوةً في الاحتجاج، لأنّ الانتقال من المسلَّم به (الشمس) إلى المطلوب تقريره (منزلة الإمام) يجعل الحجة أكثر قبولًا وانسجامًا. كما أنّ هذا التشبيه يقوم على مقارنة علاقة بعلاقة؛ فالإمام بالنسبة إلى الأمة كالشمس بالنسبة إلى الكون: كلاهما ينشر النور، ويهدي المسار، ويستحيل الاستغناء عنه. وبذلك يُحوّل الإمام عليه السلام الفكرة المجرّدة عن مقام الإمامة إلى صورة محسوسة يسهل تمثّلها، فتتبدّد الغرابة ويقوى الاقتناع. فإنّ هذا الأسلوب يجعل المخاطَب يرى الفكرة لا يسمعها فقط، فيتحقق الإقناع عبر التصوير لا عبر البرهنة المباشرة وحدها.

ومن هنا تتجلّى فاعلية التشبيه التمثيلي في الحجاج؛ إذ يُبسّط المعنى العميق، ويقرّبه من ذهن المتلقي، ويكشف له أن منزلة الإمام ليست دعوى تُبرهَن فحسب، بل حقيقة تُرى عن طريق صورة كونية لا يُجادل أحد في ضرورتها.

وقد وُظّف هذا التشبيه توظيفًا حجاجيًا لإقناع السامعين أن الإمام ضرورة كونية وهداية إلهية لا يُستغنى عنها، فهو قائم بما تقوم به الشمس في الكون، إذ لا حياة بلا نورها، ولا نجاة بلا هدايته. عندما يقول: **"الْإِمَامُ كَالبَدْرُ الْمُنِيرُ، والسِّرَاجُ الزَّاهِرُ، وَالنُّورُ السَّاطِعُ، وَالنَّجْمُ الْهَادِي فِي غَيَاهِبِ* الدُّجى، والْبِيدِ الْقِفَارِ، ولُجَجِ الْبِحَارِ ".** [8]

وينتقل الإمام- هنا- إلى سلسلة من التشبيهات تتكامل في رسم صورة واحدة هي الهداية في الظلمة فالبدر والسراج والنور والنجم كلها مصادر ضياء، والمقصد منها بيان أن الإمام هو مرشد الأمة في ظلمات الحيرة والضلال، كما يهدي النجمُ الساريَ في الليالي المظلمة.

ووجه الشبه في جميع هذه التشبيهات هو الإضاءة والإرشاد والدلالة على الطريق الصحيح، وفيها بعد بياني يجمع بين الحسّ والمعنى، إذ يُشبَّه المعنوي (الإمام والهداية) بالمحسوس (الضياء والنور)، لتقريب الفكرة إلى الفهم العام. كما أن تعدد الصور في هذا الموضع يحمل تدرّجًا بلاغيًا: من نور البدر العام إلى النجم الخاص بالهداية، في إشارة إلى شمولية أثر الإمام ودقّته في آنٍ واحد.

ويوظف التشبيه البليغ في قوله: **"الْإِمَامُ المَاءُ العَذْبُ عَلَى الظِّمَاءِ، وَالدّالُّ على الهُدى، والمُنْجِي من الرّدى "**[9] ففي هذا التشبيه ينتقل الإمام من مجال الضوء إلى الحياة، فالماء رمز البقاء، وبه تعيش الكائنات. فالمشبَّه به هو الماء العذب، ووجه الشبه هو الإحياء والإنقاذ من الهلاك، فيشبّه الإمام وجوده بالماء الذي يروي ظمأ العقول والقلوب، فيبعث فيها الحياة بعد الجفاف الروحي والضلال المعرفي، ويعزز قوله: "المنجي من الردى" المعنى الحجاجي، إذ يجعل الإمامة طريق النجاة كما أن الماء سبب النجاة من الموت

عطشًا. فإنه تشبيه بليغ قائم على علاقة الوجود والبقاء، حيث لا صلاح للحياة من دون الماء، ولا صلاح للأمة من دون الإمام.

وعززه بتشبيه بليغ آخر في قوله: **" والإمامُ النّارُ على الْيَفَاعِ* الْحَارُّ لِمَنِ اصْطلى بهِ، والدّليلُ في الْمَهَالِكِ، من فَارَقَهُ فَهَالِكٌ"**[10] وهنا يُوظف الإمام صورة النار في موضعها الإيجابي، فالنار وسيلة للدفء والنور والاهتداء في الظلمات. والمشبَّه هو الإمام، والمشبَّه به النار على المرتفع (اليفاع) التي يستدلّ بها المسافر في الليالي المظلمة، وجه الشبه هو الهداية والإرشاد والإنقاذ من التهلكة، العبارة "من فارقه فهالك" تُبرز البعد الحجاجي في هذا التشبيه؛ فكما أن من يبتعد عن النار في الصحراء يهلك في الظلام والبرد، فكذلك من يفارق الإمام يهلك في متاهات الضلال. بهذا يتحول التشبيه إلى صورة عقلية مؤثرة تربط بين الحسي والمعنوي لتأكيد ضرورة الارتباط بالإمام. فكان الإمام المشبه، والأداة ليس لها حضور في النص الحجاجي، أمّا المشبه به فكانت النار، وكان وجه الشبه الهداية والإرشاد والإنقاذ من التهلكة.

وزاد عليهما بعدد من التشبيهات البليغة في قوله: **"الإمَامُ السّحَابُ الْمَاطِرُ، والغَيْثُ الهَاطِلُ، والشّمْسُ الْمُضِيئَةُ، والأَرْضُ الْبَسيطةُ، والْعَيْنُ الغَزيرَة، والغَدِيرُ وَالرّوْضَةُ "** [11]

عندما ختتم الإمام وصفه بمجموعة من التشبيهات الكونية التي تفيض بالخير والعطاء. فالسحاب والغيث رمز للكرم الإلهي، والأرض والعين والغدير والروضة رموز للنماء والاستقرار، وجه الشبه في جميعها هو الخصب والعطاء والرحمة العامة. كان لركني التشبيه البليغ حضور له فيها، وهما م: المشبه والمشبه به من دون أن يصرح بذكر أداة التشبيه، ووجه الشبه. وبهذه الصور يرسم الإمام ملامح الإمامة بوصفها مصدراً للخير الوجودي والمعنوي، فكما أن الطبيعة تعطي للحياة أسباب البقاء، فالإمام يمنح للأمة أسباب الهداية والاستقامة. وهذا التعدد في التشبيهات يعبّر عن شمولية دور الإمام في الكون والمجتمع، فهو نور وهدى، وماء وحياة، وسحاب ورحمة، فيكتمل بذلك التصوير الحجاجي الذي يجعل من الإمام محوراً كونيًّا لا يُستغنى عنه.

مما تقدمّ: يتضح أن الإمام الرضا عليه السلام وظف هذه التشبيهات ليؤكد أن الإمام محور الهداية وسبب الحياة الروحية، فشبّهه بالشمس والماء والنور والسحاب ليبيّن أن وجوده ضروري كضرورتها في الكون، فجاء التشبيه عنده أداة إقناع تجمع بين صفاء البيان وقوة الحجة.

-الأثر الإقناعي للاستعارة :

إنّ الأساليب البلاغية ليست مجرد أدوات للتزيين اللفظي، بل هي قوة فاعلة تُسهم في إشعال إحساس المتلقي وإثارة وجدانه، فتجعل الخطاب أكثر تأثيراً ونفاذاً. فهي تمنح الحجة طابعاً فنياً راقياً، وتربط بين عناصر القول في انسجام يضاعف من قوتها الإقناعية. وعن طريق هذا التلاحم بين الجمال والحجة، يتمكن المتكلم من توجيه فكر المتلقي وإقناعه بما يريد، وربما التأثير في سلوكه واتجاهه. فالفن البلاغي ليس ترفاً لغوياً، بل هو روح العملية الإقناعية، التي تفتح أمام المتكلم طريقاً إلى عقل السامع وقلبه في آنٍ واحد.[12]

وتُعدّ الاستعارة إحدى الوسائل البلاغية التي يلجأ إليها المتكلم لإضفاء الطابع المجازي على خطابه، لما تحمله من طاقة دلالية تتجاوز حدود المعنى الظاهر إلى أفقٍ أعمق وأكثر تأثيراً. والمجاز من البنى التعبيرية التي تتجاوز حدود اللغة المباشرة، إذ يُسهم في بناء خطاب تتداخل فيه الدلالات الحجاجية والنفسية معاً. فهو لا يعمل في فراغٍ لغوي، بل يتشكل ضمن شبكة من العلاقات السياقية التي تمنحه طاقته الإقناعية والتأثيرية. وتتميز الاستعارة بأنها من أكثر الأساليب البلاغية عمقاً في بنيتها ودلالتها، إذ تنطوي على قصدية فنية تتسم بشيء من الغموض المقصود الذي يدفع المتلقي إلى المشاركة في بناء المعنى وتأويل الخطاب. فهي لا تقوم على مجرد نقلٍ لفظي بين المعاني، بل على خلق توتر دلالي يُثري الكلمة ويجعلها فضاءً مفتوحاً للتأويل. وفي هذا التفاعل بين ما يُصرَّح به وما يُلمَّح إليه، تتشكل طاقتها الإقناعية التي تتجاوز حدود القول المباشر

ومن هنا تتجلى قوة الاستعارة الحجاجية، إذ تُسهم في إنتاج المعنى داخل السياق، وتستدعي فاعلية المتلقي بوصفه شريكاً في عملية الفهم والتأويل، فتغدو وسيلة إقناع تجمع بين الجمال والعقلانية في آنٍ واحد.[13] والاستعارة من الوسائل اللغوية التي يُوظفها المتكلم لبلوغ مقاصده الحجاجية، إذ تمثل أداة فاعلة في بناء الخطاب الإقناعي وصياغة حججه بأسلوبٍ مؤثر. وقد رأى أبو بكر العزاوي أنّ الاستعارة تتجاوز حدود التعبير العادي لتغدو أرفع الأساليب اللغوية قدرةً على أداء الوظيفة الإقناعية في التراكيب الخطابية، لما تنطوي عليه من طاقة تصويرية وعمق دلالي يحرّك المتلقي نحو التفاعل والتفكير. كما ربط العزاوي مفهومها بـ السُلَّم الحِجاجي، مبينًا أنّ الأسلوب الاستعاري يحتلّ مرتبةً عليا فيه، لأنّه يتطلب جهداً ذهنياً وتأملاً من القارئ والمتكلم معاً، فيُنتج بذلك خطاباً أكثر حيوية وتأثيراً. [14]

وأصبح مفهوم الاستعارة في التراث البلاغي والنقدي يُفهم بوصفه علاقة لغوية تقوم على المماثلة بين الأشياء، على نحوٍ يشبه التشبيه، غير أنها تمتاز عنه بكونها تقوم على الاستبدال الدلالي لا على الجمع بين الطرفين. فالاستعارة لا تُقدّم المعنى في صورته المباشرة، بل تُقدّمه عبر نقل دلالة لفظ إلى آخر لوجود صلة تشابه تربط بينهما. وإذا كان التشبيه يُبرز العلاقة بين شيئين يجتمعان في النص، فإن الاستعارة تحذف أحدهما لتجعل الآخر يقوم مقامه ويمثله في التعبير، فتغدو الصورة أكثر تركيزاً. [15]

أركان الاستعارة تتألف من ثلاثة عناصر أساسية: المستعار منه والمستعار له، وهما ما يُعرفان بطرفي الاستعارة، والمستعار، وهو اللفظ المنقول الذي يجمع بين الطرفين في علاقة تقوم على المشابهة والدلالة المجازية. [16]

ومن مناظرات الإمام الرضا عليه السلام مع سليمان المروزي في مسألة إرادة الله تعالى، **"قال الرِّضا عليه السّلامُ : يَا سُلَيْمَانُ ! أَ لَا تُخْبِرُنِي عَنِ الْإِرَادَةِ، فِعْلٌ هِيَ أَمْ غَيْرُ فِعْلٍ؟**

قَالَ : بَلَى هِيَ فِعْلٌ .

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : فَهِيَ مُحْدَثَةٌ لِأَنّ الْفِعْلَ كُلَّهُ مُحْدَثٌ.

قَالَ : لَيْسَتْ بِفِعْلٍ.

قَال : فَمَعهُ غَيْرُهُ لَمْ يَزَلْ ؟

قَالَ سُلَيْمَانُ : الْإِرَادةُ هِيَ الْإِنْشَاءُ .

قَالَ : يَا سُلَيْمَانُ ، هَذا الَّذي عِبْتُمُوهُ عَلى ضِرَار* وأَصْحَابِهِ مِنْ قَوْلِهِمْ إنَّ كُلَّ مَا خَلَقَ اللهُ عَزّ وَ جَلَّ فِي سَمَاءٍ أَوْ أَرْضٍ ، أَوْ بَحْرٍ أَوْ بَرٍّ ، مِنْ كَلْبٍ أَوْ خِنْزِيرٍ أَوْ قِرْدٍ أَوْ إنْسَانٍ أَوْ دَابَّةٍ إرَادَةُ اللهِ ، وَإنَّ إرادة اللهِ تَحْيَا وَتَمُوتُ وَتَذْهَبُ وَتَأْكُلُ وَتَشْرَبُ وَتَنْكِحُ وَتَلَذُّ وَتَظْلِمُ وَتَفْعَلُ الْفَوَاحِشَ وَتَكْفُرُ وَتُشْرِكُ فَيَبْرَأُ مِنْهَا وَيُعَادُ بِهَا ، وهَذا حَدُّهَا". [17]

يعتمد الإمام الرضا عليه السلام في هذا الحوار أسلوب الإلزام الحجاجي المبني على توظيف الاستعارة التمثيلية بصورةٍ ضمنية، ويتجلّى موضعها في قوله عليه السلام وهو يعرض قول الخصوم " وإنّ إرادة الله تحيا وتموت وتذهب وتأكل وتشرب وتنكح وتلذّ وتظلم وتفعل الفواحش وتكفر وتشرك..." فهذه الجملة هي نصّ الاستعارة؛ حين عرض قول الخصوم بصيغةٍ تُجسّد "الإرادة الإلهية" ككائنٍ حيٍّ يقوم بأفعال الإنسان من حياةٍ وموتٍ وأكلٍ وشربٍ.

فقد أُسندت الأفعال البشرية إلى "الإرادة"، وهي معنى محض لا يقوم بمثل تلك الأفعال، فيُفهم من ذلك أن الإمام عليه السلام أراد أن يُظهر تهافت التصوّر العقلي لمخالفه عبر كشف الباطلة التي تترتب على قوله.

إنّ هذه الصورة البيانية تنطوي على استعارة مكنية، شُبّهت فيها "الإرادة" بإنسانٍ حيٍّ له صفات وأفعال محسوسة، وحُذف المشبَّه به (الإنسان) ورُمز إليه بلازمه (الأفعال الإنسانية)، وقد وُظّفت هذه الاستعارة في السياق الحجاجي توظيفًا إقناعيًّا بالغ الدقة، إذ جعلت المعنى الفلسفي المجرد في صورةٍ محسوسةٍ ساخرة،

تُبرز المفارقة المنطقية في قول الخصم، وبذلك يتحقق الإقناع عن طريق الصورة البلاغية التي تفضح الخلل العقائدي في التصور المقابل.

وتجلّت بلاغة الإمام الرضا عليه السلام في هذا الموضع في تحويل المجرد إلى محسوس، ليُري مخاطبه – لا بالبرهان العقلي فحسب، بل بالتصوير البياني - تناقض قوله. فكانت الاستعارة هنا وسيلة إقناعٍ وجدانيةٍ وعقليةٍ معًا، لأنها خاطبت العقل بالحجة، والخيال بالتصوير، فجمع الإمام بين قوة البرهان وجمال البيان.

وتؤدي الاستعارة المكنية دورًا حجاجيًا يتمثّل في تجسيد المعاني المجرّدة وتحويلها إلى صور محسوسة، فيسهل على المتلقي تمثّلها والانفعال بها. ويسهم هذا التحويل من الذهني إلى الحسيّ في تقوية الحجة وترسيخها في ذهن السامع، لأنّ الصورة المستعارة تخلق أثرًا تخييليًا يجعل المعنى أقرب إلى الإدراك، وأشد قدرة على الإقناع.

ومن أبرز مناظراته عليه السلام مع الجاثليق تلك التي أقام فيها الحجة على وجود البشارة بخاتم الأنبياء صلى الله عليه وآله في نصوص الإنجيل، **"قال الرِّضَا عَلَيْهِ السّلامُ : مَا تَقُولُ فِي يُوحَنَّا الدَّيْلَمِيّ ؟ قالَ : بَخْ بَخْ ، ذَكَرْتَ أَحَبّ النّاسِ إلى الْمَسِيحِ .**

قال : فأقْسَمْتُ عَلَيْكَ هَلْ نَطَقَ الْإنْجِيلُ أنَّ يُوحَنَّا قَالَ : إنَّمَا الْمَسِيحُ أخْبَرَنِي بِدِينِ مُحَمَّدٍ الْعَرَبِيّ، وَبَشّرَنِي بِهِ أنَّهُ يَكُونُ مِنْ بَعْدِهِ ، فَبَشَّرْتُ بِهِ الْحَوَارِيّينَ فآمَنُوا بِهِ ؟

قَالَ الْجَاثَلِيقُ : قَد ذَكَرَ ذَلِكَ يُوحَنَّا عَنِ الْمَسِيحِ ، وَبَشَّرَ بِنُبُوَّةِ رَجُلٍ وَبأهْلِ بَيْتِهِ وَوَصِيّهِ ، ولَمْ يُلَخِّصْ مَتى يَكُونُ ذَلِكَ ، وَلَمْ يُسَمِ لَنَا الْقَوْمَ فَنَعْرِفَهُمْ". (18)

من الصور البيانية ذات البعد الإقناعي في مناظرة الإمام الرضا عليه السلام مع الجاثليق قوله عليه السلام: "هل نطق الإنجيل أن يوحنا قال..."، ففي هذا الموضع تظهر استعارة مكنية إذ أسند فعل النطق إلى الإنجيل، شبّه فيها الكتاب بإنسان يتكلم. وقد وظّف الإمام هذه الاستعارة .

توظيفًا حجاجيًا بالغ الأثر، إذ جعل الإنجيل – وهو المرجع المقدّس عند الخصم – شاهداً ناطقاً بالحقيقة التي يدعو إليها، فحوّل النص الجامد إلى برهان حيٍّ يشهد بصحة نبوة النبي محمد صلى الله عليه وآله.

وتكمن قوة الاستعارة هنا في إقناع الخصم بلسان معتقده، لا بمجرد الجدل العقلي، وهو ما يعكس عمق البنية البلاغية في خطاب الإمام عليه السلام.

ومن المناظرات التي تجلّت فيها براعة الإمام الرضا عليه السلام في عرض الحقائق العقدية بأسلوبٍ بيانيٍّ قائمٍ على الإقناع العقلي والبياني، مناظرته مع عمران الصابئ، إذ دار الحديث بينهما حول مسألة الكلام الإلهي وطبيعة أفعال الله تعالى، حيث **" قالَ عِمْرَانُ : يَا سَيّدِي ، أليْسَ قَدْ كَانَ سَاكِتاً قَبْلَ الْخَلْقِ لَا يَنْطِقُ ثُمَّ نَطَقَ ؟**

قَالَ الرِّضَا عَلَيْهِ السّلامُ : لَا يَكُونُ السُّكُوتُ إلّا عَنْ نُطْقٍ قَبْلَهُ ، وَالْمَثَلُ فِي ذَلِكَ أنّهُ لا يُقَالُ لِلسّرَاجِ هُوَ سَاكِتٌ لَا يَنْطِقُ ، وَلا يُقَالُ : إنَّ السِّرَاجَ لَيُضِيء فِيمَا يُرِيدُ أنْ يَفْعَلَ بِنَا ؛ لِأنّ الضّوْءَ مِنَ السّرَاجِ لَيْسَ بِفِعْلٍ مِنْهُ وَلا كَوْنٍ ، وَإنّمَا هُوَ لَيْسَ شَيْءٌ غَيْرَهُ ، فَلَمّا اسْتَضاءَ لَنَا قُلْنَا قَدْ أضَاء لَنا حَتّى اسْتَضَأْنَا بِهِ ، فَبِهَذا تَسْتَبْصِرُ أَمْرَكَ ". (19)

وبعد عرض نص المناظرة، يتّضح أن الإمام عليه السلام قد وظّف الصورة البيانية توظيفًا بليغًا، ويتجلّى ذلك في قوله عليه السلام : "لا يكون السكوت إلا عن نطق قبله... لا يقال للسراج هو ساكت لا ينطق..."، إذ أقام الإمام استعارته على تشبيه فعل الله في الخلق بنور السراج في الإضاءة، فكما أن السراج لا يُقال إنه "ينطق" أو "يسكت" لأن الضوء صادر عن ذاته لا بفعلٍ محدث، كذلك لا يُقال إن الله كان ساكتًا ثم نطق. وتُعدّ هذه استعارة مكنية بالغة العمق، شبّه فيها التجلّي الإلهي في الكون بإشراق الضوء من السراج. وقد

جاءت هذه الصورة لتؤدي وظيفة حجاجية مقنعة، تُحوّل المفهوم العقلي المجرّد إلى مشهدٍ محسوسٍ يقرّب الفهم ويقوّي الحجة، فجمعت الاستعارة في نص الإمام بين البيان والإقناع، وبين الحسّ والعقل.

ويظهر الحجاج بالاستعارة في قول الإمام – عليه السلام – **" فإنّ اليتيم إذا انقطع يَتْمُهُ خرج من المغانم ولم يكن له نصيب "** (20)

يمثّل قول الإمام الرضا عليه السلام مثالًا دقيقًا على توظيف الاستعارة في بناء الحجة الحوارية، إذ عمد الإمام إلى توظيف فعل "انقطع" في غير معناه الحسي الأصلي؛ فالفعل يُوظف في اللغة لقطع الأشياء المادية وفصلها، غير أنّه وُظّف هنا للدلالة على زوال صفة اليُتم، فكانت استعارة مكنيّة حُذِفَ فيها المشبَّه به ورُمز إليه بالفعل المستعار. وقد أسهم هذا التصوير في تقريب المفهوم المجرد - وهو تغيّر الحكم الشرعي بانتهاء اليُتم- إلى صورة حسية واضحة تجعل المتلقي يدرك أنّ آثار اليُتم تزول بزوال وصفه كما يزول أثر الشيء إذا انقطع امتداده.

وبهذا الأسلوب يرسّخ الإمام العلاقة المنطقية بين العلّة والمعلول، فيظهر أن خروج اليتيم من المغانم نتيجة طبيعية لانتهاء الوصف الموجب لهذا الحق. وقد حققت هذه الاستعارة أثرًا حجاجيًا مزدوجًا؛ فهي من جهة تُحكم منطق الحجة وتضبط انتقالها من السبب إلى النتيجة، ومن جهة أخرى تُقدّم الفكرة بطريقة موجزة وقابلة للإدراك المباشر.

في مناظرته مع رأس الجالوت " **قَالَ لَهُ الرِّضَا عَلَيْهِ السّلامُ : هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ إخْوَةِ بَنِي إسْرَائِيلَ نَبِيٌّ غَيْرُ مُحَمَّدٍ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ؟ قَالَ : لَا .**

قَالَ الرِّضَا عَلَيْهِ السّلامُ : أوَلَيْسَ قَدْ صَحَّ هذا عِنْدَكُمْ ؟

قَالَ : نَعَمْ ، وَلكِنّي أُحِبُّ أنْ تُصَحِّحَهُ إليّ مِنَ التّوْرَاةِ ؟

فَقَالَ الرِّضَا عَلَيْهِ السّلامُ : هَلْ تُنْكِرُ أنَ التّوْرَاةَ تَقُولُ لَكُمْ : جَاءَ النُّورُ مِنْ قِبَلِ طُورِ سَيْنَاءَ ، وأضَاءَ لنَا مِنْ جَبَلِ سَاعِيرَ ، وَاسْتَعْلَنَ عَلَيْنَا مِنْ جَبَلِ فَارَانَ ؟" (21)

وقد استند الإمام الرضا عليه السلام إلى القول المروي في التوراة القائل: "جاء النور من قبل طور سيناء، وأضاء لنا من جبل ساعير، واستعلن علينا من جبل فاران"، نجد أن هذا القول يقوم على استعارة تصريحية بليغة، إذ شُبّهت الرسالات السماوية بالنور، وحُذف المشبَّه (الرسالات أو الأنبياء) وصُرّح بالمشبَّه به (النور)، فكانت الصورة قائمة على إشراق المعنى في ضوء البيان ، فـ"النور" هنا ليس نورًا حسيًا، بل هو نور الهداية والحقّ والوحي، فكل موضع من المواضع الثلاثة يشير إلى مرحلة من مراحل الرسالات: فـ"طور سيناء" رمز لوحي موسى عليه السلام، و"جبل ساعير" رمز لرسالة عيسى عليه السلام، و"جبل فاران" هو مهبط الوحي على النبي محمد صلى الله عليه وآله. وهكذا انتقل المعنى من الدلالة المادّية إلى الدلالة المعنوية في صورة مجازية متتابعة الأنوار.

وتمكّن الاستعارة التصريحية من تحويل المعاني المجردة إلى صور ملموسة يسهل تصورها واستيعابها، ما يعزز قدرة المتكلم على توجيه الخطاب نحو هدف محدد. كما تساهم في تحريك مشاعر المتلقي والتأثير في عاطفته، فتقوي الحجة وتزيد من فعالية الإقناع.

وهذه الاستعارة ذات وظيفة حجاجية مزدوجة: فهي من جهةٍ. تستند إلى نصٍّ معترف به عند الخصم، ومن جهة أخرى توظّف الصورة البيانية لتأكيد شمولية النور الإلهي وامتداده في الرسالات الثلاث. وبذلك جمع الإمام عليه السلام بين البرهان العقلي والنور البلاغي في خطابٍ واحدٍ، يُقنع الخصم بالمنطق والبيان معًا، وفي أثناء عرضه لاصطفاء أهل بيت الرسول – صلّى الله عليه وآله وسلم – وأن الصدقة محرّمة عليهم ، فيقول: **"لأنّ الصدقة مُحرّمة على محمّد وأهل بيته، وهي أوساخ الناس لا لهم؛ لأنهم طُهّروا من كل دنس ووسخ".** (22)

ويتجلّى الحجاج بالاستعارة في هذا الموضع من المناظرة حين يبيّن الإمام الرضا عليه السلام علّة تحريم الصدقة على أهل بيت الرسول ﷺ، فقد قدّم الإمام حجته عبر بناءٍ بلاغي دقيق يجمع بين الاستعارة والكناية لتأكيد المعنى وترسيخ علّته. وتتضح الاستعارة التصريحية في تشبيه الصدقة بالأوساخ؛ إذ صُرّح بلفظ المشبَّه به "الأوساخ"، وحُذِف المشبَّه وهو " الصدقة "، فانتقل المعنى من مستوى الأحكام الشرعية المجرّدة إلى صورة حسية نافذة تُبرز عدم مناسبة هذه الصدقة لمقام أهل البيت. ومن جهة أخرى، يعزّز الإمام هذه الصورة بتوظيف كناية عن صفة في قوله: "لأنهم طُهّروا من كل دنس ووسخ"؛ إذ تدل الكناية على اتصافهم بالطهارة والشرف والسموّ الأخلاقي، فتُقدِّم معنى الطهارة لا بالتصريح به، بل بإسناده إليهم على هيئة وصف ملازم يدلّ على رفعة المنزلة. وينتج عن اقتران الاستعارة بالكناية بناءٌ حجاجيّ قويّ يجمع بين البيان والصورة والتعليل؛ فالاستعارة تُظهِر قبح قبول الصدقة، والكناية تُثبت سموّ مقامهم، وبذلك تتحقق النتيجة الحجاجية بمنطق واضح: لا يُمكن لمن طهّره الله من كل دنس أن يقبل ما شبّهه الإمام بالأوساخ، فيترسّخ الحكم ويقوى أثره الإقناعي في سياق المناظرة.

ويبرز الحجاج بالاستعارة في قول الإمام الرضا عليه السلام: "إنّ الإمام زمامُ الدين، ونظامُ المسلمين، وصلاحُ الدنيا، وعِزُّ المؤمنين" [23]، إذ اعتمد الإمام سلسلة من الاستعارات التصريحية التي تُبرز الدور المحوري للإمام في بنية الدين والمجتمع. فتعبيره: "الإمام زمام الدين" يقوم على استعارة تصريحية؛ فالزمام في أصل وضعه هو ما يُمسَك به لقيادة الدابة وتوجيهها، وقد استُعير هنا للدلالة على أنّ الإمام هو القائد والمهيمِن والضابط لشؤون الدين، فذُكر المستعار منه (الزمام) وحُذِف المستعار له، ثم أُسنِد هذا اللفظ للإمام على سبيل المجاز.

ويُغني الإمام هذه الصورة باستعارات متتابعة في قوله: "نظام المسلمين، وصلاح الدنيا، وعزّ المؤمنين"؛ إذ تُستعار ألفاظ النظام والصلاح والعزّ- وهي صفات تُسند عادةً إلى الأمور أو البُنى- لبيان أثر الإمامة في ضبط شؤون الأمة واستقامة أحوالها. فجُعل الإمام هو "النظام" الذي تنتظم به حياة المسلمين، و"الصلاح" الذي تُستقام به أمور الدنيا، و"العزّ" الذي يكتسب المؤمنون به قوّتهم وهيبتهم. وتُشكِّل هذه الاستعارات المتراكبة بناءً حجاجيًا قويًا؛ إذ تنتقل من التصوير الفردي (زمام الدين) إلى التصوير البنائي الشامل (نظام المسلمين وصلاح الدنيا وعز المؤمنين)، فتصنع برهانًا بيانيًا يُظهر أنّ موقع الإمام ليس موقع الوعظ أو التعليم فحسب، بل هو مركز السلطة الروحية والاجتماعية التي تستقيم بها الأمة.

-الأثر الإقناعي للكناية :

إنّ المراد بالكناية أن يقصد المتكلم معنى معينًا لا يُصرّح به مباشرة، بل يعبّر عنه بلفظٍ آخر يلازمه في المعنى ويقود الذهن إليه تلميحًا، فيجعل من هذا اللفظ قرينة تُشير إلى المعنى المقصود دون أن تُفصح عنه صراحة. [24]

وتتعدّد الدوافع التي تدعو إلى تُوظيف الكناية في الخطاب، فقد يُقصد بها الإشارة إلى عظمة القدرة الإلهية كما ورد في البيان القرآني، أو يراد منها تنبيه السامع إلى معنى غاب عنه كما يظهر في الخطب الوعظية والإصلاحية، وقد تُوظف كذلك للتعبير عن أمرٍ يُستقبح التصريح به، فيُرمز إليه بعبارةٍ رقيقة لا تنفر منها الأسماع ولا تأباها الطباع. [25] فالكناية من الأساليب البيانية التي تمتاز بطابعها القائم على الإشارة والتلميح، إذ يعتمد المبدع عن طريقها آليةً تعبيرية غير مباشرة يُخفي فيها مقصده الحقيقي وراء بناءٍ رمزيٍ ولفظٍ موحٍ، يتيح للمتلقي أن يستنبط المعنى المقصود عن طريق العلاقة القائمة بين الظاهر والمضمر في الخطاب فهي بنية دلالية مركّبة تتفاعل فيها طبقتان من المعنى: معنى ظاهر يُستدلّ به، وآخر خفيّ يُراد لذاته. وعن طريق هذا التفاعل تتجلّى القيمة البلاغية للكناية بوصفها أداةً تُفعّل طاقات اللغة في التلميح والإيجاز، وتوسّع آفاق التأويل تبعًا للعلاقات الذهنية أو العرفية التي تربط بين المعنيين. [26]

فالكناية " مصورة حية وراسمة أيضاً ... وأحيانا يكون أثرها موجزاً في المعنى بوساطة تقليل اللفظ، وهذا ما لا تقدر عليه الحقيقة مثلما تقدر عليه الكناية " (27)

تبرز هذه المقولة جوهر الكناية بوصفها أداةً بيانية تجمع بين الصورة والحياة، فهي لا تكتفي بنقل المعنى، بل تُجسّده في هيئةٍ ناطقة تُحرّك الخيال وتوقظ الحسّ الجمالي في المتلقي. فالكناية مصوّرة حيّة لأنها تُنشئ مشهدًا تخييليًا ينبض بالحركة، وراسمة لأنها تُحسن اختيار الألفاظ التي تُحيل إلى المعنى في دقّة ولباقة. وهي، بهذا الأسلوب، تتجاوز طاقة الحقيقة اللفظية التي تُصرّح بالمعنى مباشرة، إذ تُضفي الكناية على الفكرة عمقًا وإيجازًا، فتحقّق المعنى بأقل الألفاظ، دون أن تُضعف أثره في النفس.

وتؤدي الكناية دورًا حجاجيًا بارزًا في الخطاب؛ إذ تُعد من وسائل التأثير التي تُحقق الإقناع والإلزام بفضل اعتمادها على إثبات المعنى بطريق الدلالة التي تُلزم المتلقي وتدفعه إلى قبول الحجة. وتمتاز الكناية بقدرتها على تجسيد المعاني المجردة في صور موحية غير مباشرة، مما يجعلها أكثر تأثيرًا في نفس المخاطَب. كما أنها تُسهم في إثارة مشاعر المتلقي عبر ما تولده من إيحاءات دقيقة، إلى جانب ما تمنحه من اختصار وتكثيف لفظي لا يخل بالمعنى، فيُصبح الخطاب أكثر قوة وعمقًا في خدمة المقصد الحجاجي.

وتنقسم الكناية على ثلاثة أنواع رئيسة: ما يُراد بها إبراز صفةٍ معينة، وما يُقصَد منها الإشارة إلى موصوفٍ بعينه، وما يُراد بها إسناد صفةٍ إلى موصوف على سبيل النسبة، وعليه فإن البناء الكنائي يقوم على ثلاثة محاور كبرى، يختار المتكلم منها ما يوافق غرضه؛ فقد يكون قصدُه الدلالة على صفة محددة، أو التعريف بموصوف مخصوص، أو بيان العلاقة النسبية بينهما في سياق التعبير. (28)

ومن الكنايات الدالة على عمق البيان الحجاجي عند الإمام الرضا عليه السلام قوله في مناظرته مع الجاثليق حينما سأله : **" مَا تَقُولُ فِي نُبُوّةِ عِيسى وَكِتَابِهِ ، هلْ تُنْكِرُ مِنْهُمَا شَيْئاً ؟**

قَالَ الرِّضَا عَلَيْهِ السّلامُ : أنَا مُقِرٌّ بِنُبُوَّةِ عِيسى وَكِتَابِهِ ، وَمَا بَشَّرَ بِهِ أُمَّتَهُ وَأقَرَّتْ بِهِ الْحَوَارِيُّونَ، وَكَافِرٌ بِنُبُوّةِ كُلِّ عِيسى لَمْ يُقِرّ بِنُبُوّةِ مُحَمّدٍ صَلَّى عَلَيْهِ وَآلِهِ وَبِكِتَابِهِ ، وَلَمْ يُبَشّرْ بِهِ أُمّتَهُ" (29)

الكناية تقع في العبارة: " وكافر بنبوّة كل عيسى لم يُقرّ بنبوّة محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم- وكتابه "

يُوظّف الإمام الرضا عليه السلام في هذا الموضع كناية النِّسبة توظيفًا حجاجيًّا دقيقًا؛ إذ لا يصرّح بالحكم مباشرة، بل يُسند صفة الإيمان الحقّ إلى كلّ مَن يقرّ بنبوّة عيسى عليه السلام على الوجه الذي ورد في الشرائع السماوية، أي ذلك الإيمان الذي يتضمّن الاعتراف بما بشّر به المسيح من نبوّة محمد-صلّى الله عليه وآله وسلّم-وكتابه. وفي المقابل ينسب الكفر إلى من يُظهر الإيمان بعيسى ظاهرًا، لكنه لا يلتزم بما بشّر به من الإيمان بالنبي الخاتم. وبذلك يربط الإمام بين صدق الاعتقاد بعيسى وأحقّية الإيمان بمحمد صلّى الله عليه وآله وسلّم- برباط دلالي غير مباشر، فيكشف عبر الكناية عن معيار التفريق بين الإيمان الزائف والإيمان الصادق، من غير أن يواجه محاوره بحكم مباشر قد يثير ردّة فعل دفاعية، مما يجعل الكناية هنا أداة إقناع تُظهر صلابة الحجة ورصانة البناء الحواري. وتُبرز هذه الكناية قدرة الإمام على دمج المنطق العقلي بالأسلوب البياني، إذ وُظف التركيب الكنائي ليؤسّس قاعدة حجاجية مفادها أن الإيمان بعيسى لا يكتمل إلا بالإقرار بمن بشّر به، وهو محمد صلى الله عليه وآله. وبهذا تحوّلت الكناية إلى أداةٍ فكريةٍ جدليةٍ تتجاوز حدود التزيين اللفظي لتصبح برهانًا بلاغيًا موجّهًا نحو إقناع الخصم عبر إلزامه بمنطقه الداخلي.

وفي أثناء استدلال الإمام - عليه السلام - في فصلهِ بين الآل والأمة ، يقول : **" لأنَّ الله جعلهم في حيزٍ وجعل الناس كلهم في حيزٍ دون ذلك " (30)**

يتضح الحجاج بالكناية في هذا الموضع من المناظرة حين يبيّن الإمام الرضا عليه السلام الفرق بين منزلة الآل ومنزلة الأمة، فقد بنى الإمام حجته على كنايتين منسجمتين تُجسّدان البعد القيمي والاصطفائي لمقام أهل البيت عليهم السلام. فقولُه: "جعلهم في حيز" يعدّ كناية عن نسبة؛ إذ لا يصرّح الإمام بالمنزلة الرفيعة

مباشرة، بل يُسندها إلى موقع خاص جعله الله لهم، فيفهم السامع أن الاختصاص بالحيز هو في الحقيقة اختصاص بالمقام والاصطفاء. ويُعزّز الإمام هذا المعنى باستدعاء دلالة قرآنية مستقرة تشير إلى مكانة أهل البيت، كما في قوله تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى} [سورة الأنفال: آية: 41]، وهو نصّ يرسّخ موقعهم في التشريع ويثبت أنّ لهم منزلة قُدّمت على سائر الناس. ثم يقرن الإمام الكناية الأولى بأخرى في قوله: "وجعل الناس كلهم في حيز دون ذلك"، وهي أيضًا كناية عن نسبة تسند للناس موقعًا أدنى من موقع الآل، فيُفهم منها أنّ التمايز من عند الله وأنّ درجة القرب منه ليست واحدة للجميع. ويؤدي هذا النسق البياني وظيفة حجاجية بارزة؛ إذ يقدّم الإمام حجته بعبارات غير مباشرة، تعتمد الإيحاء لا التصريح، وتُبرز الفرق بين الطرفين دون إثارة حساسية المخاطَبين، فيتجلى بذلك بناء حجة رصينة تؤكد أنّ مكانة أهل البيت عليهم السلام مكانة اصطفاء إلهي، تختلف عن منزلة بقية الأمة من حيث المقام والتشريع والدور.

ويواصل الإمام الرضا عليه السلام بناء حجته عبر توظيف الكناية بوصفها وسيلة بلاغية تدعم قوة البرهان، فيقول: **"وهذا توكيدٌ مؤكد، وأمرٌ دائم لهم إلى يوم القيامة"** [31]. يمثّل هذا التعبير كناية عن صفة؛ إذ إنّ قوله "أمرٌ دائم إلى يوم القيامة" لا يصرّح مباشرة بصفة الثبات أو الامتداد الزمني للحكم، وإنما يذكر لازم الصفة، فيفهم السامع أنّ المعنى المقصود هو ثبوت هذا التشريف واستمراره من غير انقطاع. ويعزّز الإمام هذا البناء بكناية أخرى عند قوله: **"في كتاب الله الناطق"** [32]؛ إذ إنّ وصف القرآن بـ الناطق ليس على حقيقته، وإنما هو كناية عن صفة البيان والإفصاح والوضوح التي يمتاز بها الكتاب العزيز، فهو ناطق بحججه، مُظهِر لحقائقه، وإن لم يكن نطقًا صوتيًا. وبهذه الكناية يظهر المعنى عن طريق لوازمه دون التصريح به، فيُسند الإمام صفة الإبانة والاحتجاج للقرآن، ليجعل حجته مستندة إلى كتاب واضح الدلالة غير محتمل للَّبس. وهكذا تتكامل الكنايتان في بناء حجاجي محكم: الأولى تُثبِت ديمومة الحكم، والثانية تُثبِت وضوح مصدره وحجيته، مما يجعل الخطاب أكثر رسوخًا وإقناعًا.

وتظهر الكناية في قول الإمام عليه السلام **"وكذلك المسكين إذا انقطعت مسكنته لم يكن له نصيب في المغنم ولا يحل له أخذه"** [33] إذ يكشف هذا القول عن كناية عن صفة؛ فالإمام لا يصرّح بزوال الحاجة، بل يذكر لازمها في عبارة "انقطعت مسكنته"، فيُفهَم أنّ المقصود هو انتهاء حالة الفقر التي كانت سببًا لاستحقاق النصيب. ويمضي الإمام في تعزيز حجته بكناية أخرى في قوله: **"لأنه لما نزّههم عن الصدقة نزّه نفسه"**[34] ؛ إذ إنّ "التنزيه" هنا كناية عن صفة الطهارة وسموّ النفس، وهو يشير إلى أنّ تحريم الصدقة على أهل البيت عليهم السلام صادر من مقامٍ عالٍ يليق بصفائهم وطهارتهم، كما أنّ نسبة هذا التنزيه إلى الله تعالى تُضفي على الحكم قوة حجاجية لا مجال لدفعها. ويتأكد هذا المعنى عند بيانه لتحريم الصدقة على النبي وآله، إذ يقول عليه السلام: **"فهل تجد في شيءٍ من ذلك أنه جعل لنفسه سهمًا أو لرسوله ﷺ أو لذي القربى"**[35]. فهذه العبارة تحمل كناية عن صفة أيضًا، لأن الإمام لا يصرّح مباشرة باستحقاق هؤلاء لدرجةٍ أرفع من الأخذ، بل يذكر مظاهر ذلك عن طريق السؤال الاستفهامي الذي يكشف أنّ الله قد رفعهم فوق مواضع الأخذ، وأعلى مقامهم عن مواقع الحاجة، فكانت الكناية هنا مُشيرة إلى المنزلة الرفيعة والاستغناء والتشريف. وبذلك تتداخل الكنايات في خطابه لتشكّل نسقًا حجاجيًا محكمًا، يقوم على الإيحاء لا التصريح، ويبرهن على أنّ تحريم الصدقة عليهم إنما هو أثرٌ لمقام الطهارة والاختصاص الإلهي الذي ينفردون به من دون سائر الأمة

ويتجلّى الحجاج بالكناية أيضًا في قول الإمام الرضا عليه السلام: **"فخصّنا بهذه الخصوصيّة إذ أمرُنا مع أمره، ثم خصّنا دون الأمة "**[36] ففي هذا التعبير يعتمد الإمام كناية عن صفة لإيضاح منزلة أهل البيت عليهم السلام، إذ إنّ قوله: "أمرُنا مع أمره" لا يصرّح صراحة بصفة الاتباع والموافقة والطاعة، بل يذكر

لازم المعنى الذي يفيد أنّ أوامرهم متصلة بأمر الرسول الكريم ﷺ، وموافقة له، ولا تنفصل عنه. وعن طريق هذا الربط غير المباشر يُفهَم أنّ أهل البيت عليهم السلام لا يأمرون إلا بما يأمر به الرسول، ولا ينهون إلا عما ينهى عنه، مما يجعل طاعتهم امتدادًا لطاعته. ثم يعمّق الإمام أثر الحجة بقوله: "ثم خصّنا دون الأمة"، وهي أيضًا كناية عن صفة الاصطفاء؛ إذ تُسند فيها ميزة التخصيص إلى أهل البيت، فيفهم السامع أنّ الله وهبهم مقامًا متميزًا لا يشترك فيه بقية الناس. ويُسهم هذا النسق من الكناية في بناء حجة قوية تقوم على الإيحاء أكثر من التصريح، فيُرسِّخ المعنى بأنّ موافقة أمرهم لأمر الرسول هي علّة وجوب طاعتهم، وأنّ هذا التخصيص الإلهي هو دليل مكانتهم ورفعة شأنهم، مما يجعل الخطاب أكثر تأثيرًا وإقناعًا في سياق المناظرة.

ومن مناظرته عليه السلام مع علي بن محمد بن الجهم عندما قال له :

" يا ابْنَ رَسُولِ اللهِ ، أتَقُولُ بِعِصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ ؟ قالَ : نعم . قَال : فَمَا تَعْمَلُ فِي قَوْلِ اللهِ عَزّ وَجلّ : { وَعَصى آدَمُ رَبّهُ فَغَوى } [طه : 121] وفي قوْلِهِ ...

قَالَ الرِّضَا عَلَيْهِ السّلامُ : وَيْحَكَ -يَا عَلِيُّ- اتَّقِ اللهَ ، وَلا تَنْسُبْ إلى أنْبِيَاءِ اللهِ الْفَوَاحِشَ ، وَلا تَتَأوَّلْ كِتَابَ اللهِ بِرَأيِكَ ... " (37)

تُمثّل عبارة الإمام عليه السلام: "ويحك – يا علي – اتقِ الله" كنايةً عن صفة العصمة والتنزيه في سياق الدفاع عن مقام الأنبياء؛ إذ لم يصرّح الإمام مباشرةً بأنّ الأنبياء منزّهون عن الفواحش، بل عبّر عن ذلك بأسلوب غير مباشر قائم على النهي عن نسبة النقص إليهم والتحذير من الخطأ في تأويل النصّ. فتوظيف كلمة "ويحك" في العربية يحمل معنى الزجر الممزوج بالشفقة (38)، يُقصد به تنبيه المخطئ من غير تجريح، مما يجعلها كنايةً تُبرز صفة الخطأ الجسيم في كلام الخصم دون التصريح باتهامه، أمّا قوله عليه السلام "اتقِ الله" فهو بدوره كناية عن صفة الورع الواجب في تفسير القرآن، إذ يتضمن أمرًا في ظاهره النصح، وفي باطنه التحذير من التورّط في نسبة ما لا يليق بمقام الأنبياء. فالمتكلم هنا لا يكتفي ببيان خطأ التأويل، بل يكشف بطريق الكناية عن خطورة المساس بصفة العصمة التي يجب أن تُصان لهم. وقد أضفى هذا الأسلوب الكنائي بعدًا حجاجيًا عميقًا في المناظرة، إذ لم يكتفِ الإمام عليه السلام بتفنيد قول خصمه بالحجة العقلية، بل قدّم خطابًا إصلاحيًا قائمًا على التأديب الأخلاقي المقنع، فجمع بين إقناع العقل وتأثير الوجدان. وبذلك أدّت الكناية هنا وظيفةً مزدوجة: فهي من جهةٍ وسيلة بلاغية للتأثير والإقناع، ومن جهةٍ أخرى أداة تهذيبية تُظهر سموّ خُلُق الإمام في محاورته للمخالفين.

ورد في مناظرته عليه السلام مع أبي قرة حول الرؤية والكلام في قوله : **"وإنّا روينا: أن الله قسّم الرؤية والكلام بين نبيّين، فقسم لموسى عليه السلام الكلام، ولمحمد الرؤية.**

فقال ابو الحسن عليه السلام : فمن المبلّغ عن الله إلى الثقلين الجن والأنس أنه لا تدركه الابصار ، ولا يحيطون به علما، وليس كمثله شيء ، أليس محمد ﷺ؟

قال بلى .

قال ابو الحسن عليه السلام : فكيف يجيء رجل إلى الخلق جميعاً فيخبرهم أنه جاء من عند الله ، وأنه يدعوهم الى الله بأمر الله". (39)

إنّ قوله عليه السلام: "فكيف يجيء رجل إلى الخلق جميعاً..." يمثل كناية نِسبة تقوم على إسناد معنى عقائديّ إلى النبيّ صلى الله عليه وآله، إذ يشير الإمام عليه السلام – بطريق غير مباشر – إلى أنّ من بلغ الناس أنّ الله "لا تُدركه الأبصار" لا يمكن أن يُنسب إليه الادعاء برؤيته. فظاهر الكلام استفهام، أمّا باطنه فيحمل نسبة استحالة الرؤية إلى مقام التبليغ النبوي، وبذلك ينقد دعوى الخصم دون تصريح مباشر.

وقد أضفت هذه الكناية بعدًا حجاجيًا مهمًا؛ لأنّ الإمام عليه السلام لم يلجأ إلى المواجهة المكشوفة، بل وظف أسلوب الإلزام الهادئ الذي يكشف التناقض في دعوى الخصم عن طريق ربطها بوظيفة النبي في بيان صفات الله. وهكذا جاءت الكناية هنا وسيلة فعالة لإظهار بطلان الحجة بأسلوب يجمع بين عمق الدلالة ودقة البرهان. وبذلك يبرز الأسلوب الكنائي عند الإمام الرضا عليه السلام بوصفه أداة للإقناع العقلي، إذ يُظهر التناقض دون تجريح، ويُبطل القول الباطل عبر نسبة المعنى الصحيح إلى موضعه الشرعي، مما يعكس براعته في البيان وقوة منطقه في الجدل الديني.

وعند اجتماعه عليه السلام مع علماء أهل العراق وخراسان ، **" قالَ المَأْمُون : أخْبِرُونِي عَنْ مَعنى هَذِهِ الْآية { ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا } ؟ [فاطر : ٣٢].**

فَقَالت العُلَمَاءُ : أرَادَ اللهُ عزّ وَجلّ بِذَلِكَ الْأُمَّةَ كُلّها.

فقال المأمون : مَا تَقُول يَا أبا الحسن ؟

فَقَالَ الرِّضا عَلَيه السّلامُ : لَا أقُولُ كَمَا قَالُوا ، وَلكِنّي أقُولُ أرَادَ اللهُ عزّ وَجلّ بِذلِكَ الْعِتْرَةَ الطَّاهِرَةَ " (40)

يظهر في هذه المناظرة توظيف الإمام الرضا عليه السلام لأسلوبٍ بلاغي دقيق تمثل في الكناية عن موصوف، وهي من أرقى الوسائل الحجاجية في البيان القرآني، إذ تُؤدي المعنى بطريق الإشارة والتلميح دون التصريح المباشر. فقد قال عليه السلام في معرض جوابه:

"لا أقول كما قالوا، ولكنّي أقول أراد الله عزّ وجلّ بذلك العترة الطاهرة"

فهذا القول يقوم على بنية كنائية تعتمد على الإشارة إلى الموصوف دون الإفصاح المباشر عن أسمائه، إذ كنى الإمام بالعترة الطاهرة عن الصفوة المختارة من عباد الله الذين اصطفاهم تعالى لحمل العلم والكتاب. فالكناية هنا ليست عن صفة مجردة، بل عن موصوف محدد يمتاز بالاصطفاء والطهارة، وهو أهل البيت عليهم السلام، الذين دلّت عليهم الآية عبر صفة الاصطفاء، ويُلاحظ أن الإمام عليه السلام لم يعتمد أسلوب الجدل الصريح، بل ركّز على الإقناع البياني القائم على الحجة الهادئة؛ إذ بدأ بنفيٍ مهذب لرأي العلماء: "لا أقول كما قالوا"، ثم أتبع ذلك بإثبات يحمل معنى أعمق: "ولكنّي أقول أراد الله بالعترة الطاهرة". فجاء جوابه محكمًا في بنائه الحجاجي، متوازنًا بين الردّ والتقرير، مما أضفى على قوله قوة استدلالية متكئة على الدلالة القرآنية نفسها.

وهكذا جمعت الكناية بين البلاغة والإقناع، وأظهرت براعة الإمام في تحويل النص القرآني إلى حجة بيانية عاقلة، تُقنع الخصم بالحجة قبل أن تُلزمه بالتصريح المباشر، مع إبراز الموصوف المقصود بصفة غير معلنة، وهو جوهر كناية الموصوف.

وعليه يمكن القول إنّ الإمام الرضا عليه السلام قد جسّد في مناظراته أرقى أشكال البلاغة الحجاجية التي توظّف اللغة في خدمة الحقيقة، وتجعل من البيان القرآني منطلقًا للحوار والإقناع، فكانت بلاغته مرآةً لعقله، وكلمته حاملةً لحكمة النبوة التي انحدرت منها. وبهذا ختم هذا البحث بنتيجة مفادها أن البلاغة في مناظراته لم تكن أداة للزخرف، بل كانت وسيلةً للبيان الحقّ، تستند إلى عمقٍ فكريّ وروحيّ يجعلها من أنقى صور الإقناع في التراث الإسلامي.

الخاتمة :

أسفر البحث عن عدد من النتائج، يمكن تلخيصها على النحو الآتي:

1-كشف البحث عن أن الصورة البيانية ليست عنصراً زخرفياً، بل وسيلة حجاجية تُسهم في توضيح الفكرة وترسيخها وإيصال المقصد بدقة، مما يُعزِّز قوة الخطاب الإقناعي في المناظرات.

2-ظهر في أثناء البحث أن التشبيه له أثرًا كبيرًا في تقريب المعنى المجرد إلى صورة محسوسة، الأمر الذي جعل الحجة أقرب للفهم وأسرع في التأثير على الخصم والمتلقي.

3- كشفت الاستعارة عن قدرة عالية على إعادة بناء المعنى عبر نقله من سياقه الأصلي إلى سياق جديد أكثر عمقًا، مما يوجه ذهن المخاطَب نحو الفكرة المراد إثباتها بطريقة لطيفة وقوية.

4-التفت البحث إلى الكناية بوصفها أداة دقيقة لتحقيق الإقناع الهادئ الذي يعتمد التلميح لا التصريح؛ وقد مكّن ذلك الإمام من كشف التناقض في قول الخصم دون صدام مباشر، مع الحفاظ على رصانة الخطاب.

5-أظهرت المناظرات انسجام الصورة البيانية مع آداب الحوار؛ إذ جاء توظيفها خاليًا من التهكم أو التعنيف، بل قائمًا على الحكمة، مما أكسبها قوة حجاجية ذات طابع أخلاقي، وأسهمت الصورة البيانية في بناء خطاب حجاجي راقٍ يمزج بين وضوح الدليل وجمال العبارة، ويقدّم نموذجًا متميزًا للإقناع في التراث الكلامي والجدلي.

الهوامش :

(1) ينظر: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب ، د. جابر عصفور ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ، ط3 ، 1992م : 323 .

(2) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب :227.

(3) ينظر : الإيضاح في علوم البلاغة : 164 .

(4) ينظر: البلاغة فنونها وأفنانها علم البيان والبديع : 17 .

(5) ينظر : التفكير البلاغي عند العرب ، أسسه وتطوُّره إلى القرن السادس (مشروع قراءة) ، حمادي صمود ، دار الكتاب الجديدة المتحدة ، ط3 ، 2010م : 478 .

(6) عيون أخبار الرضا (ع) : 1/386 .

(7) المصدر نفسه : 1/456 .

*غياهب : جمع الغيهب : شدة السواد والظلمة . الدجى : الظلمة (ينظر : عيون اخبار الرضا : 1/457)

(8) المصدر نفسه: 457 /1 .

(9) المصدر نفسه: 1/457 .

*اليفاع : ما ارتفع من الأرض . (ينظر : المصدر نفسه : 1/457)

(10) المصدر نفسه : 1/457 .

(11) المصدر نفسه : 1/457 .

(12) ينظر : الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه : 88 .

(13) ينظر : بلاغة الخطاب وعلم النص ، د صلاح فضل ، علم المعرفة ، الكويت ، 1978م : 138-139.

(14) ينظر : اللغة والحجاج : 101-106.

(15) ينظر : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب : 201 .

(16) ينظر : معجم المصطلحات البلاغية وتطورها : 86 .

*ضرار بن عمرو الإباضي : من رؤوس المعتزلة وشيخ الضِّرارية ، كان له آراء في صفات الله والإرادة والخلق أثارت الجدل بين الفرق الكلامية (ينظر : سير أعلام النبلاء : 10/545)

(17) عيون أخبار الرضا (ع) : 389-390 /1 .

(18) المصدر نفسه: 331-332 /1.

(19) المصدر نفسه: 360 /1 .

(20) تُحف العقول عن آل الرسول – صلّى الله عليهم - : لأبي محمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحراني (من أعلام القرن الرابع الهجري) ، قدّم له وعلق عليه : الشيخ حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي، بيروت - لبنان ،ط7 ، 1423هـ - 2002م : 319 .
(21) عيون أخبار الرضا (ع) : 1/347-346 .
(22) تحف العقول : 320 .
(23) المصدر نفسه : 323 .
(24) ينظر : دلائل الإعجاز : 66 .
(25) ينظر : البرهان في علوم القرآن : 2/ 305-301 .
(26) ينظر : البلاغة العربية قراءة أخرى : محمد عبد المطلب ، الشركة العالمية المصرية للنشر –لونجمان ، 1997م ، ط2 : 187.
(27) البلاغة عند المفسرين حتى نهاية القرن الرابع الهجري، رابح دوب، دار فجر للنشر والتوزيع- القاهرة، ط2، 1999م: 335.
(28) ينظر : البلاغة العربية قراءة أخرى : 189.
(29) عيون أخبار الرضا (ع) : 1/ 331-330 .
(30) تحف العقول : 319.
(31) المصدر نفسه: 319 .
(32) المصدر نفسه: 319 .
(33) المصدر نفسه: 319 .
(34) المصدر نفسه: 320 .
(35) المصدر نفسه: 320 .
(36) المصدر نفسه: 321 .
(37) المصدر نفسه: 1/404-403 .
(38) ينظر : لسان العرب : فصل الواو (مادة ويح) : 2/ 638 .
(39) الاحتجاج : 2/160 .
(40) عيون أخبار الرضا (ع) : 1/478 .

-المصادر والمراجع :

-القرآن الكريم
1-الاحتجاج : أبي منصور أحمد بن علي بن ابي طالب الطبرسي من علماء القرن السادس ، منشورات الشريف الرضي ، شبكة الفكر، ج1 ، ط1 .
4-الإيضاح في علوم البلاغة : جلال الدين القزويني (ت739هـ)، وضع حواشيه : إبراهيم شمس الديّن، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان، ط1، 2003م.
5-البرهان في علوم القرآن: بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار التراث – القاهرة ، ط3 ، 1984م.
7-بلاغة الخطاب وعلم النص ، د صلاح فضل ، علم المعرفة ، الكويت ، 1978م.
8-البلاغة العربية قراءة أخرى : محمد عبد المطلب ، الشركة العالمية المصرية للنشر –لونجمان ،ط2 ، 1997م .

9-البلاغة عند المفسرين حتى نهاية القرن الرابع الهجري ، رابح دوب ، دار فجر للنشر والتوزيع – القاهرة ، ط2 ، 1999م .
10-البلاغة فنونها وأفنانها علم البيان والبديع : الدكتور فضل حسن عباس ، دار الفرقان، عمان الأردن ،ط4 ، 1997م.
12-تُحف العقول عن آل الرسول – صلّى الله عليهم - : لأبي محمد الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة الحراني (من أعلام القرن الرابع الهجري) ، قدّم له وعلق عليه : الشيخ حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي، بيروت - لبنان ،ط7 ، 1423هـ - 2002م .
13-التفكير البلاغي عند العرب ، أسسه وتطوُّره إلى القرن السادس (مشروع قراءة) ، حمادي صمود ، دار الكتاب الجديدة المتحدة ، ط3 ، 2010م .
14-الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه: سامية الدّريدي، عالم الكتب الحديث، إربد – الأردن ، ط2، 2011م .
15-دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ)، قراءة وتعليق أبو فهر ومحمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط5، 2004م.
16-الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب: د. جابر عصفور، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط3 ، 1992م .
17-عيون أخبار الرضا (ع) : للشيخ ابي جعفر محمد بن علي بن بابوبيه القمي المعروف بالصدوق(ت381هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت – لبنان ، ط1، 1984م .
18-لسان العرب : ابن منظور الأنصاري (ت 711هـ)، الحواشي لليازجي وجماعة من اللغويين ، (د.ت)، دار صادر – بيروت ، ط3 .
19-اللغة والحجاج : أبو بكر العزاوي ، العمدة في الطبع ، الدار البيضاء – المغرب ، ط1 ، 2006م.
20-معجم المصطلحات البلاغية وتطورها: احمد مطلوب ، مكتبة لبنان ناشرون ، بيروت – لبنان ، ط2 ، 1983م.
21-معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب: مجدي وهبه، كامل المهندس، مكتبة لبنان – بيروت ، ط2 ، 1984م .